لهوى

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد السادس والثلاثون العدد الثاني لسنة ٢٠٠٩م

WWW.ATTAWEEL.COM

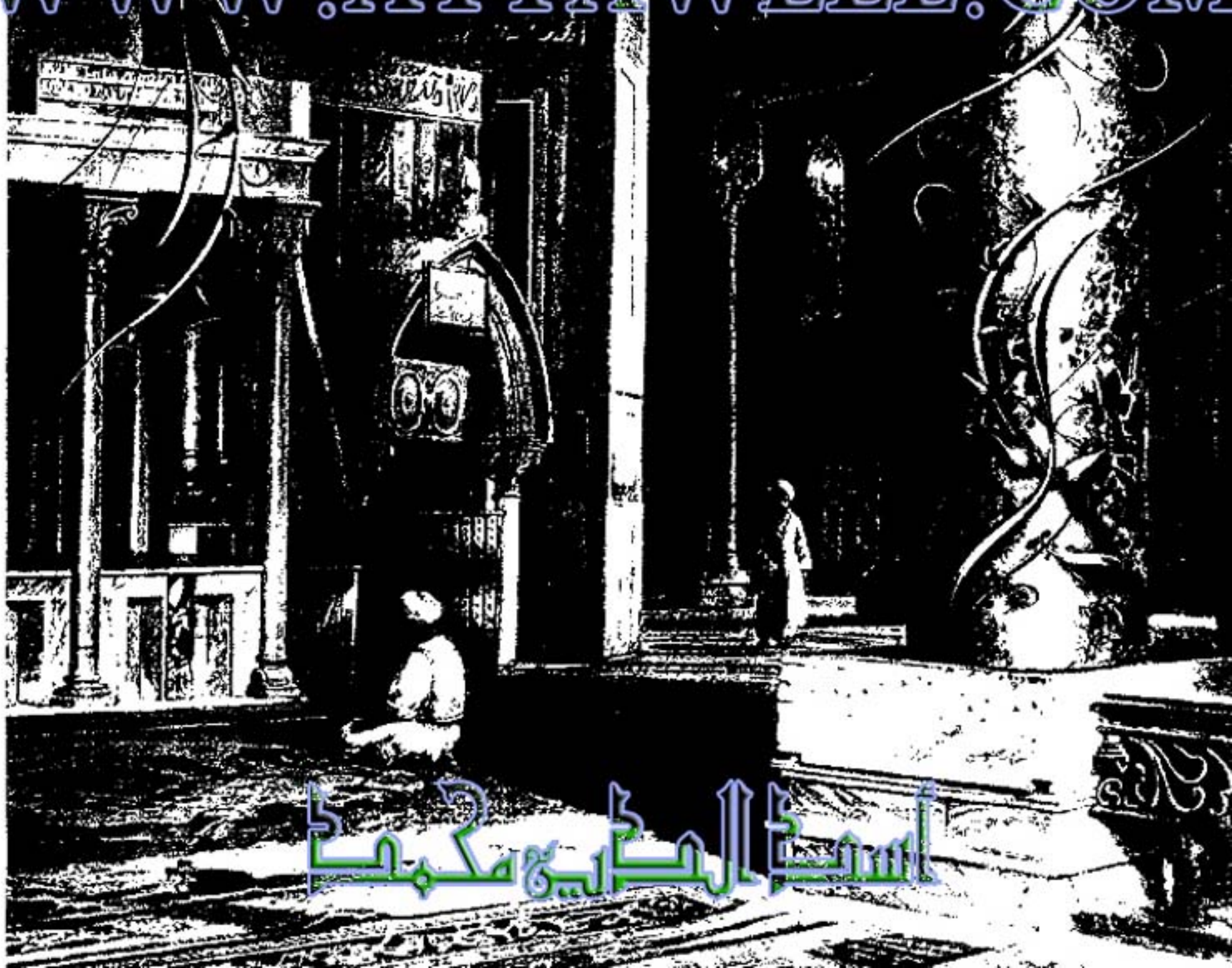

أسعد الحكيم

الاغتراب في شعر المتنبي

أ. د. فليح كريم خضير الركابي
كلية الاداب- جامعة بغداد

المتنبي الشاعر الظاهرة، الذي يتربع على عرش مملكة الشعر منذ مئات السنين، وسيبقى دوي ذلك الاسم ما بقيت الانسانية، والملاحظ ان اللغة انقادت له انقياداً رائعاً، فكانت طوع بنانه، باتفاق الاراء، وقد وقفت خلفها مضامين فكرية ثرة بينت لنا حالة العصر الذي عاش فيه الشاعر، والملابسات التي رافقت حياته، كما عكست الطموح والكبرياء، والشمم، التي غمرت اقاصي نفسه المغتربة، المتمردة، التي تبحث عن الامارة والملك، فكان موضوع الباحث الاغترب في شعر المتنبي حيث الحقائق تبرز واضحة من خلال استنطاق شعره مستعرضاً معنى الغربة والاغتراب أولاً، وبعض اسباب الاغتراب ثانياً ونتائجه ثالثاً، ثم خاتمة المطاف، وما آلت اليه نهاية هذا العملاق.

الغربة والاغتراب

الغربة لغة كلمة تشترك فيها معان عديدة كما جاء في لسان العرب منها:

البعد، والنوى، والاعتزال، والنفي، والتنحي، والنزوح عن الوطن والاغتراب[1]. اما اصطلاحا فهي عاطفة تستولي على المرء لا سيما الفنانون فيعيشون في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهوون، ويتداخل المعنى اللغوي والاصطلاحي ليعطيا مفهوما واحدا هو الابتعاد عن الناس بالجسم او بالفكر.

ومعنى الاغتراب:

شعور الفنان بأن العالم كله سجن أقحم فيه مرغما، فكبله بقيود وغمره بالام وشرور واشعره بانه غريب بين اهله وناسه[2].

والاغتراب:

هو انعدام السلطة والانفصام عن الذات والتذمر والعداء والاعتزال والانفصال والنفور والانزعاج والعجز عن التلاؤم والاخفاق وعدم التكيف مع الاوضاع السائدة وقد يكون الاغتراب لظروف اقتصادية في المجتمعات الرأسمالية جراء اغتصاب حقوق الآخرين[3]، او لاسباب دينية تسبب العزلة والتصوف للنفس المغتربة تلك النفس التي تكون نائية عن المجتمع بأفكارها ومشاعرها وذلك ما سنلاحظه عند ابي الطيب وعلى لسانه.

اسباب الاغتراب

لا يأتي الشيء من العدم، او يكون منقطع الجذور اذ لا بد من اسباب موجبة تكون وراء ظهوره وبروزه على السطح فيكون مشخصاً من لدن القارئ او المتأمل وذلك ما لاحظناه من خلال استعراضنا لحياة المتنبي المولود عام ٣٠٣ هـ في حي كندة بالكوفة، وفيها تلقى علومه الاولى وفي مدارس العلويين على وجه الخصوص[4]. فنهل البيان من منهل عذب ثم صقله حين بدأ مع ابيه غلاما.

شعر المتنبي بالاغتراب عن واقعه منذ ولادته او منذ ادراك الحياة يتيم الام فانعكس ذلك بوضوح في شعره، وسلوكه، ومن اسباب اغترابه.

١. النسب المصنوع

WWW.ATTAWEEL.COM

هو احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجحفي المكنى بأبي الطيب والملقب بالمتنبي هكذا ينسب[2]، ويبدو أن هذا النسب مصنوع ووضع من اجل الاساءة الى الشاعر الذي لم يعتد به لانه لم يذكره او يتحدث عنه، بل انه كان يفتخر بنفسه واسرته فيقول[3].

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضا
د وعوذ الجاني وغوث الطريد

انا ترب الندى ورب القوافي
وسمام العدا وغيظ الحسود

آثر الشاعر الافتخار بنفسه وباسرته وبمكانته التي صنعها على الرغم من المنغصات التي رافقت حياته، لقد بنى الشاعر نصه على التناغم الايقاعي وترادف المعاني كي يرتقي بنفسه اولاً، ان النسب المصنوع ولد عقدة نفسية عند هذا الغلام الطموح، فراح يبحث عن ملك او مملكة يعوض من خلالها ذلك النقص الذي احدث عنده تداعيا واحباطاً مرين بل كان يشعر بأن له نسبا ارفع من ذلك وبأنه ينتسب الى اسرة كريمة عريقة من سلالة مباركة ولو انصف الزمن الشاعر ووقف معه كي يحقق مبتغاه بمملكة وسلطان لعرفنا حقيقة نسب المتنبي على لسانه قبل ان يلفها الغموض ولا بد ان اباه وجدته قد اخبراه بذلك، فنراه يخاطب الامير معتزاً بشرفه وبنسبه قائلاً[4]:

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وقدم الشاعر نفسه على الأمير الممدوح وفي حضرته معتزاً بنسبه قائلاً[5]:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسه
بأنني خير من تسعى به قدم

ان هذا الرجل صاحب نسب شريف واسرة عريقة وعلى الرغم من ذلك الشرف والنسب الا انه لم يأخذ حقه بل راح يطوف في الاقاليم ويتعرض الى الشتم أو السجن أو الاعتداء حتى انتهى به الامر في البلاط الحمداني واصبح جليس الامير والسمير الاول له واشترط عليه شروطاً تبعث التساؤل في نفس القارئ: منها ان لا يقبل الارض بين يديه كباقي الشعراء وينشد وهو جالس ولا ينشد وهو حاسر الرأس، وهذا ما يدل على اعتداد الشاعر بنسبه وعبقريته، وحدث ذلك للمتنبي مع امراء آخرين بل زاد من ذلك حين جلس على كراسي الأمراء ومدحهم وهم وقوف بين يديه وذلك ما لم يحدث في تاريخ الشعراء.

ان اخفاء الشاعر لنسبه ولد لديه اغترابا نفسيا وتنحيا عن المجتمع فكان يرى نفسه غريبا كغربة النبي صالح (ع) او المسيح (ع) وقد غمطه الزمن حقا مشروعا كان يستحق ان يناله لاصالته وعبقريته فيقول[6].

ما مقامي بأرض نخلة إلا
كمقام المسيح بين اليهود

أنا في امة تداركها الله
غريب كصالح في ثمود

حلق الشاعر في رسم الصورة ذات الابعاد المتضادة وهو يشبه نفسه بالنبيين صالح وعيسى (ع) وامعن في سب الواقع حين شبهه (باليهود وثمود) رمزي الخداع والمكر والخيانة فالمتنبي من خلال هذا النص يبدو مغترباً ويقسو في سبه جراء الحيف الذي لحق به.

ان كبرياء المتنبي وترفعه دفعا به الى ان ينقلب على واقعه ويرفض عيدان او عبدان السقاء لشعوره بأنه

اكبر من ذلك، وان هذه المهنة الوضيعة التي الصقت بابيه لا تليق به وبنسبه، فمن هنا بدأ التنحي والترفع عن المجتمع بل ان الشاعر اكد ارتقاءه وترفعه، وان نبوءته لنفسه تحققت اذ فاق الاولين والآخرين في فن الشعر وكان قمة الهرم:[10]

أي محل ارتقى أي عظيم اتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ان ذكاء الشاعر وموهبته المتدفقة والفرادة التي خص بها كان لها دور رئيس في اغترابه وترفعه.

٢. شعور المتنبي بالاخفاق وخيبة الامل

شعر المتنبي بالاخفاق حين زار بغداد في شبابه ولم يجد من يعتد به، أو بشعره، مما جعله يحس بالمرارة والالم، والاغتراب، فقرر الرحيل الى بلاد الشام معلناً عن بدء الغربة المكانية لانه ((لم يجد في بغداد ولا في الكوفة شيئاً مما يصبو اليه من مال وجاه وشهرة ولذلك عول على ان ينشد هذا كله وبعضه في بلد آخر فرحل الى الشام عام ٣٢١ هـ كما يرجح ابو العلاء، فاكثر من التجوال فيها وجاب حاضرتها وباديتها وعرف كثيراً من اهلها ومدح عدداً كبيراً من عظمائها ونبلائها))[11]. لكن النحس رافقه حين تضافرت عليه عوامل عديدة مثل الفقر والسجن والغربة لتزيد من الالم النفسي والشعور بالضعة والمهانة وهو يقبل المعونة من ابي دلف الذي ألب الحاكم عليه ثم توسط في الافراج عنه فنراه يقول[12]:

أهون بطول الثواء والتلف
والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بي
والجوع يرضي الاسود بالجيف
كن ايها السجن كيف شئت فقد
وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدر ساكن الصدف

ثقافة عالية في انتقاء المعاني وتبصر فريد بعادات اهل البادية واهل الخليج الذين اشتهروا بصيد اللؤلؤ.

الفقر والسجن زادا من مرارة الاغتراب او قسوة الزمن فضلاً عن قسوة الانسان التي جعلت ذلك العملاق المترفع يرزح تحت طائلة السجان، ولن يتمكن من تحقيق مآربه ووضعت الايام الشاعر تحت رحمة من لا يقيم له وزناً ولا يقدر نسبه وعلمه.

٣. الجسد

اعتداد المتنبي بنفسه وفروسيته والبحث عن السلطان اثارت الحساد عليه وذلك ما أجج الاغتراب في نفسه، وهو في الشام يبحث عن مستقر له فشعر حساده بأن طموحه تهديد لمصالحهم وحياتهم المستقبلية عند الامراء مثل ابن كروس، نديم بدر بن عمار حاكم طبرية، الذي ساءه، ان يستأثر الشاعر بعطف ابن عمار، فكاد له وابعده عن الامير، فنأى الشاعر مغترباً بجسمه وفكره حتى استقر به المقام في بلاط الحمدانيين واصبح من مقربي سيف الدولة وذلك ما الهب الحسد في النفوس التي تبغض هذه الموهبة المتدفقة التي بدأت تنعم بخير الامير الذي ((كان يفيض عليه الهبات تلو الهبات ويوليه من الحفاوة مالا يولي احد فشق هذا على من بحضرته من العلماء والادباء والشعراء وصاروا يحسدون الشاعر على مكانه من الامير ويكيدون له ويثلبونه ويحطون من قدره))[13]. فخاطب الشاعر الامير قائلاً[14]:

ان كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا ارضاكم الم

الجرح والالم رفيقا الشاعر ومن اسباب اغترابه النفسي والفكري وهو يخاطب الامير والحساد معاً بكل عنفوان ورفعة وجراء ذلك الحسد، يبدو ان المتنبي تشاءم منه فسمى ولد ((محسداً)).

٤. خذلان كافور للشاعر

لم يحقق كافور الاخشيدي بعض مطامح المتنبي، بل انه خذله بسبب الوشاية والحسد وهما اللذان لعبا دوراً رئيساً في اقصاء الشاعر عن مصر، واحس بأنه محاصر، فاجتمع في نفسه الخوف والضياع، والاغتراب المكاني والاخفاق في تحقيق المبتغى وعاد متخفيا هاربا من بطش الامير الاخشيدي وذلك ما ولد لديه اغتراباً فكرياً، ونفسياً وهو محبط لم يحقق ما يصبوا اليه وقد قال في كافور ما ليس فيه[٥]:

اذا كسب الناس المعالي بالندى
فأنك تعطي في نداك المعاليا
وغير كثير ان يزورك راجل
فيرجع ملكاً للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذي جاء غازيا
لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

ان سؤال الشاعر للامير بأن يحقق مطامحه فيكون ملكاً او والياً لن يحصل مما أثار في نفسه ردود افعال نفسية سيئة جعلته يعيش مغترباً عن واقعه ويشعر بانه مرفوض من لدن السلطة الحاكمة في مصر ونادم على ذلك المديح لكافور الاخشيدي.

٥. عدم انسجامه مع المجتمع البغدادي مرة اخرى

زار المتنبي بغداد سنة ٣٥٢ هـ واتصل بابي الحسن محمد وزير معز الدولة المعروف بالمهلبي لكنهما (الخليفة والوزير) عزفا عنه بسبب عزوفه عن مدحهما بل انه خاصمهما مخاصمة شديدة في اثناء وجوده في بلاط الحمدانيين[٦] وذلك ما دعا الرجل بأن يغترب مكانياً مرة اخرى ويتجه الى ارجان في بلاد فارس عند ابن العميد الذي احسن وفادته واحسن الشاعر مديحه ومن اروع ما قاله المتنبي هناك قصيدته المشهورة في وصف شعب بوان[٧]:

مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان

ان موقف المتنبي الفكري في هذه القصيدة واضح وفيه شك فقد كان جمال الوادي مبعث حديثه عن الخليفة من آدم(ع) الى معجزة سليمان ثم عن واقع الشاعر المليء بالتناقضات وعن جمال الطبيعة الساحر الذي اثار شجون المتنبي وشكوكه.

نتائج الاغتراب

لقد اغترب المتنبي ـ كما مر بنا ـ مكانيا فأبتعد عن اهله ووطنه ولاقى في محال اقامته الرخاء والعناء معا، وسببت له نفسه المترفعة التي تسكن بين جوانحه نفوراً من المجتمع او نفور المجتمع منه ولانه لم يحقق بعض آماله التي كانت تراوده ضاق ذرعا بما آل اليه ترحاله، فتعرض الى اغتراب نفسي وفكري انعكس جليا في شعره ومن نتائج ذلك الاغتراب:

١. الحنين الى مرابع الطفولة

حن المتنبي الى مهد صباه (الكوفة) لا سيما حين ورده خبر وفاة راعية طفولته جدته فقال[٨]:

لك الله من مفجوعة بحبيبها
قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن الى الكأس التي شربت بها
واهوى لمثواها التراب وما ضما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة
فماتت سرورا بي فمت بها غما
رقا دمعها الجاري وجفت جفونها
وفارق حبي قلبها بعدما ادمى

اول ضحايا غربة المتنبي هذه العجوز التي فجعت

بـفراق حبيبـها المغترب الذي نأت بـه الايام منذ شبابـه فماتت دون ان ترى وحـيدها الذي قابـل ذلك الخبر بالحنين واللهفة الى قبرها البعيد، ويرى الشـاعر ان سبـب وفاتها الفرح المفرط بمعرفة اخباره واتصاله بها بعد ان اوشكت تلك العجوز ان تفقد الأمل ولا تراه ثانية لقد بنى الشاعر نصه على التضاد والمفارقة (يأس وترحة ـ سرور وغم) وان النص تحرك حركة سريعة الى الخلف ليتذكر الشـاعر دموع الفراق التي سكبـتها جدته حـين ترحاله وابتعاده عنها وهو اليوم يقف عاجزاً لا يتمكن من رؤيتها وقـد خطفتها يد المنون فجفت دموعها وجف عمرها الى الابـد ليرد عليه خبر وفاتها ويزيد من لوعته واغترابه.

٢ـ التعرض الى الاعتداء

لقـد جر الاغتراب على المتنبي كثيراً من النتائج السلبية ومنها حادثة البلاط الحمداني المشهورة حـين تعرض الى الضرب من ابن خالويه في مجلس الامير وهو يناقش في مسالة لغوية وسكوت الامير عن ذلك، فأثر هذا الموقـف في نفس الشـاعر الذي آثر الرحـيل مختتماً حـياته في حـلب هناك ومتوجهاً الى صاحبه الحسن بن عبيد الله بن طغج صديقه القديم، يرافقه الحزن والاغتراب. وقـد استقبـله ذلك الصديق واكرم وفادته وسـأله ان يمدحه لكن الشاعر اعتذر لاسباب نفسية مؤلمة تركتها تلك الحادثة، والملاحـظ ان المتنبي ابـلغ في قـصيدة المديح وفي اشراقـها ورفع مكانة الممدوح وقد تصرف الشاعر باللغة ببراعة حـين قـال (مدحـيك) وهي لفظة مولدة كشـفت عن صورة رائعة حـين جمع المتضادات (مدح ـ هجاء ـ قـليل ـ كثير) في بيت واحد قائلا[٣]:

ترك مدحيك كـالهجاء لـنفسي
وقـــــــليل لك المديح الكثير

غير اني تركت مقتضب الشعر
لامـر مثلي بـــه معذور

وسجاياك مادحاتـك لا لفـظي وجود على كلامي يغير

فسقى الله من أحبّ بكفيـك : وأسقاك أيهذا الأمير

التداعي والاحبـاط كانا وراء عزوف المتنبي عن مدح ذلك الرجل، وشعوره بالخيبة وخذلان الامير الحمداني له، وعدم انصافه والاخذ من خصومه وهذه الحادثة كافية ان تثير الاغتراب النفسـي، والفكري في هكذا رجل عنيد مترفع ذكي.

٣ـ عدم تمكنه من تحقيق مآربه

كان هدف المتنبي منذ شبابـه الحصول على امارة او ولاية وفي أي مكان، وان طموحـه لن يتوقـف عند تلك الحدود التي بلغها وكان يرى انه قـرين الامراء الذين حل ببلاطاتهم بل انه في بعض الاحيان يرى انه اشرف نسباً منهم وان الهدف الذي جال من اجله في البلدان لن يتحقق وان المؤامرة ابعدته عن بلاط الحمدانيين على الرغم منه وانتهى الامر بـــه معتدى عليه فقـرر الرحـيل الى بـلاد مصر بـعد مخاطبات مع والي كافور في الشام الذي وعده بملك او ولاية، فأغترب المتنبي مكانياً مرة اخر نائبـاً عن الكوفة الموطن الاصلي، وعن حـلب التي تآلف معها ميمماً وجهه نحو العاصمة المصرية التي لم يحقـق فيها مبـتغاه وادرك فيما بـعد انه سـجين كافور او رهن الاقـامة الجبرية فعول على الفرار عام ٣٥٠هـ عائداً الى وطنه (العراق) ومختتماً سـني الاغترب التي ذاق فيها حـلاوة مجالسـة الامراء ومرارة جفائهم.

٤ـ النتيجة المخيبة للآمال:

انتهت حياة ذلك العملاق على يد عملاء السلطة

وهو امر يرجحه العقل لعزوفه عن مدح الخليفة والوزير ومخاصمته لهما، اما مسؤولية فاتك الاسدي عن دم المتنبي جراء هجاء المتنبي له، فانها بسيطة ولا تحظى بالتأييد.

٥. النتيجة الايجابية:

استفاد المتنبي في اثناء اغترابه في اثراء تجربته الشعرية جراء الترحال في امصار مختلفة وافادته من مجالسة الامراء وادباء عصره وذيوع صوت الشاعر بين الامصار فكانت مجموعة تجارب متنوعة.

وفي الختام لابد من القول ان المتنبي ولد مغتربا وعاش مغتربا ومات مغتربا وان الفقر والطموح والذكاء والموهبة المتدفقة والحسد وراء تلك النتيجة المحزنة التي انتهت اليها حياة الشاعر المتنبي مقتولاً في دير العاقول مرمياً في العراء وقد لف الغموض حادثة القتل كما لف بعض تفاصيل حياته ليستحيل لغزا محيرا ويكون بحق مالئ الدنيا وشاغل الناس لكن يوم مقتله كان يوم ولادته وانتصاره على الفناء.

هوامش البحث ومصادره

١. ينظر لسان العرب (مادة غرب) ابن منظور. الدار المصرية للتأليف والترجمة جعفر خياط.
٢. ينظر المعجم الادبي. جبور عبد النور. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩.
٣. ينظر الاغتراب. شاخت ص٦٦ ترجمة كامل يوسف حسين بيروت المؤسسة العربية للدراسات/ ١٩٨٠.
٤. ينظر في الادب العباسي. د. محمد مهدي البصير مطبعة النعمان. النجف الاشرف، ص٣٢٥.
٥. ينظر نفسه ص٣٢٤.
٦. شرح ديوان المتنبي. البرقوقي. دار الكتاب العربي بيروت لبنان ٢/ ٤٦.
٧. نفسه ٤/ ٨٨.
٨. نفسه/ ١٩٧.
٩. نفسه ٢/ ٤٨.
١٠. نفسه ٢/ ٨١.
١١. في الادب العباسي ص٣٢٦.
١٢. شرح الديوان ٣/ ٢٣.
١٣. في الادب العباسي ص ٣٢٢.
١٤. الديوان ٤/ ٨٧.
١٥. نفسه ٤/ ٤٢٧.
١٦. ينظر في الادب العباسي ص ٢٤٠.
١٧. الديوان ٤/ ٣٨٣.
١٨. نفسه ٤/ ٢٢٧.
١٩. نفسه ٢/ ٢٥١.